الجمال المستور

قصة

للكاتب الارلندي : لورد دنساني

مضى الصيف وجوركنز لم يحك حكاية ما ، وكثيراً ما كان يتناول طعام الغداء في النادي ولكن عادته لم تجر بأن يقول شيئاً وهو يأكل . ثم كان بعد الغداء يجلس في مقعد وثير ليأخذ نصيباً من الراحة . وما كان ينام ولكنه كان يتراخى ، ومع انه كان يصغي الى الحكايات التي تحكى ، ويتمتم حيناً بعد حين مستحسناً او مستنكراً ، فانه لم يقص علينا قصة ما . ولم يكن أحد منا يبالي ذلك منه في فصل الصيف . فالعناية بالبساتين والحدائق ، والجولف والسباق وغير ذلك من بواعث اهتمامنا في الصيف ، كانت موضوعات يكثر فيها الحديث ويستفيض ، بغير ان تمس الحاجة الى قصص جوركنز . وأذكر مرة أن أحد الاخوان قص علي قصة خاصة بحديقته ، لم تكن متسمة بسمة الواقع ، ولكنها فتحت باباً للحديث وأتاحت لمن سمعها ان يبادل هذه القصة بقصة من نوعها . وفي خلال ذلك كله كان جوركنز مسترخياً في مقعده لايتحرك ولا ينبس . فلما أقبل شهر نوفمبر ، وقصرت الايام وطالت الامسيات وبدأ الضباب يتراخى فوق لندن طبقاً فوق طبق ، بدا لنا ان القصص التي نستطيع ان نقصها لا تشرق فيها أشعة من ضياء الشمس ، ولا ينبث الدفء في تضاعيفها ، ولا توقظ فينا ذكريات الصيف المدبر ، وعندئذ كان بعضنا يلتفت طبعاً الى جوركنز . ومهما يقل في موضوعات القصص التي كان يقصها فلم يكن ثمة ريب في أنها قصص أرض تشرق بضياء الشمس وتنعم بدفئها . وكان هو بارعاً في تصوير ذلك فكنا نستطيبه في تلك الامسيات القاتمة الباردة

***

وعلى ذلك اقتربت منه بعد ظهر يوم من أيام نوفمبر ، وحدثت نفسي بأن أبادئه الكلام إذ كان مسترخياً في مقعده . ومع انه لم يعرف من أنا ، أولاً ، ولا تتبع اتجاه كلامي ، الا أني فزت بتوجيه نظره الينا ، فلما أشار أحدنا الى صبواته ، أرهفت سمعه ، مع أنه لم يقل شيئاً . والواقع انه لم يتكلم حتى شرب شراباً منعشاً ، ثم أبقاه أمامه في متناوله

وتوقية تنبو . ثم وجهت اليه سؤالاً ، ولكنني عنيت عناية خاصة بافراغ ذلك السؤال في قالب يسترعي اهتمامه فقلت : قل ، هل منيت في حياتك بحبة ما مع امرأة ؟

تردد قليلاً وكأنه يداعب لفظ النفي الثابت بين شفتيه ، ولكن هذا اللفظ تجمد بينهما ، وبعد ثوان من التأمل قال

— مرة واحدة مرة واحدة . كان ذلك قبل سنين وفي جزيرة نائية عن هذه الجزيرة . انها لقصة غريبة . كنت في جزيرة أناكتوس . ولعلك لم تسمع باسمها ، انها جزيرة بعيدة عنا . في البحر المتوسط . وكنا في مستهل الصيف . لقد عبر كل ذلك جسر الزمان الآن . ولكنني رأيتها أولاً في مستهل الصيف وكانت سائرة في طريق تظلله أشجار الغار في صباح مشرق . كن ثماني عشرة راهبة من راهبات كنيسة الاصلاح . وكان ديرهن في الجزيرة فسهل علي حالاً أن أتبين مأتاها ومغداها . ولكن المشقة كل المشقة كانت في مخاطبتها ، بل في رؤية وجهها . لان هؤلاء الراهبات يسترن الجسم كله من قمة الرأس الى اخمص القدم . بل يلبسن القفاز لستر الايدي . انك لا ترى بقعة ما من بشرتهن . ويقال إنهن يجرين على قول مقدس عندهن مؤداه : حيث تحط ذبابة فهناك مكان لنزغات الشيطان

اذن هذه هي الحالة التي واجهتها . ومع ذلك قام في نفسي أنها جميلة ، بالغة الجمال . ولا أذكر انني في حياتي ، اقتنعت بشيء ما لم يقم عليه دليل ما ، اقتناعي بجمالها الذي لا يبارى . كانت هيفاء القد تخطو كالغزال ، النافر من أسد الغاب على حوافر لا يسمع لها وقع ولا وطء . أما شعرها فليس في وسعي أن أصفه ، واما عيناها فلم أرهما

كانت الثالثة من اليسار بين اخواتها . فكيف السبيل الى مخاطبتها ؟ ومع ذلك عزمت عزماً قاطعاً على مخاطبتها . وانك تعلم طبعاً انك تستطيع أن تخاطب إحداهن ولو كانت تسير مع سبع عشرة من صويحباتها — اذا فزت باسترعاء نظرها . ولكن كيف تسترعي نظرها وانت لا ترى عينيها ؟ انك لا تستطيع أن تشير اليها باشارة ما خاصة بها . حتى لو تربصت لها بزاوية الشارع واشرت اليها عند اقبالها ، . . كلا كل ذلك بدا لي متعذراً . فدأبت على التفكير . فخطر لي أن أكتب تذكرة صغيرة وأضعها في طريقها مغطاة بورقة شجرة ، فاذا أقبلت سحبت الورقة بخيط دقيق من الحرير ، فتنكشف لها التذكرة . وكنت أعلم موقعها من صف الراهبات ، وما كانت تغيره يوماً بعد يوم . ولكن فكري هداني الى أن هذه الحيلة لا تجدي اذ لا بد لها من الانحناء لالتقاط التذكرة ، وعندئذ تراها اخواتها فتضيع الفائدة وتتعرض للعقاب

وشعرت عند ما رأيتها اولاً ، ان الراهبات سيسلكن الطريق نفسه يوماً بعد يوم ،

منها يوم جميع القديسين. وقد تحقق ظني. وكنت كلما رأيتهن يجزن الطريق ازداد يقيناً بجمالها الذي لا يفوقه جمال. وقضيت اسبوعاً أعمل الفكر فلم اهتدِ. فقد كان يحيط بالدير سور عالٍ وقد غرزت فيه قطع من الزجاج لا تتواءم شرة انيابها القاطعة مع روح المحبة المسيحية. ولكن السور لم يكن الحائل بيني وبينها بل تعذّر وجودها والاهتداء اليها بعد اجتياز السور. واذا ألقيت اليها بتذكرة من فوق السور فقد تلتقطها واحدة من طائفة كبيرة من الراهبات

وبعد اسبوع خطر لي الخاطر الموفق. وقد كان كجميع الخواطر الموفقة غاية في البساطة. ولكن إعمال الفكر لم يكن ما حجبه عني. وليس لي فيه فضل ما لانني لم أصبه بالتفكير. ذلك اني كنت سائراً صباحاً ما الى الغابة لافكر، فمرت بي الصورة السابعة او الثامنة لا أدري بقدها الاهيف وخطوها المتئد الكريم، ويديها المتحركتين كأنهما زهرتان على غصنين يداعبهما النسيم. وكنت في طريقي الى الغابة، عندما علقت بثوبي شوكة. واني لواثق بأنه لولا تلك الشوكة لكانت مخاطبتها مستحيلة. لم أكد ألمس الشوكة لمساً رفيقاً، ولكنها لصقت بثوبي فلما حاولت نزعها ازدادت لصوقاً

هنا خطر لي الخاطر الموفق. فقلت: لماذا لا اكتب التذكرة على ورق رقيق وألفها لفاً دقيقاً وألصقها بشوكة كالشوكة التي لصقت بثوبي وأرميها اليها. وفعلاً كتبت: يا اجمل الراهبات هنا، بل في كل ارض، يجب ان اخاطبك. قولي لي أين اذهب. واذا أبيتِ فان هنالك ملاكاً ابديًّا

لم أعلق بالعبارة الاخيرة شأناً ما. لانها امرأة والجمال أحظى بعنايتها من الجحيم ولكني قلت في نفسي اذا كانت التعاليم الدينية قد جمّدت في صدرها قلب المرأة، فلعل التهديد بذهابي الى الجحيم يحملها على القبول لان مهمة الراهبات انقاذ النفوس

ولست ادري في الواقع اي جزء من هذه التذكرة حملها على القبول. لانها ردت بعد يومين بالطريقة نفسها، برسالة عالقة بالشوكة نفسها، وكانت تذكرتها كما يلي: غداً الساعة الخامسة في حديقتنا، اذا كنت تستطيع ان تتسلق السور، قرب شجرة السنديان

اذا كنت استطيع ان اتسلق السور... كان وزني سبعين رطلاً اقل مما هو الآن. وكانت هنالك أجنحة خفية ترفعني... تلك حماسة الشباب

تسلقت الجدار بعد ما صنعت سلماً من قد دخشب ملقاة خارجه، وأخذت قطعاً من الخيش الكثيف لاتقي بها شرة الزجاج، وربطت حبلاً بشجرة قريبة لاتمكن من الاستعانة به على الخروج. ولم تكن شجرة السنديان ذات نفع في النزول من أعلى السور الى أرض الدير ولكنها حجبتني عن نوافذه

كانت واقفة هناك تنتظرني وبدا لي كأنها غير راضية عما هو حادث ، ولعل ضميرها أنبها لأنها ردت على تذكرتي فأرادت أن تعوض ما بدر منها . فتجهمت أو كذلك بدت لي . ولكنها كانت هناك على كل حال . لا ريب في ذلك . هي بنفسها وجهها منقب ويداها مستورتان

كانت كلمتها الاولى : لماذا كتبت في تلك التذكرة انك هالك هلاكاً ابدياً . ماذا عنيت

فقلت : لأن جمالك سحرني

فقالت : ولكن كيف علمت انني جميلة

فقلت : علمت . . واثقاً

فعادت الى سؤالها الأول . . . ولكن ما دخل الهلاك الأبدي في كل هذا

فقلت : لأنه . . . . لا يبقى لي شيء آخر في الحياة

فقالت : وكيف ذلك

فقلت : أمر غاية في السهولة . أعثر على وجه القمر

ولزمت في حديثها هذه المسألة لا تعدوها . الا أنني لم اذهب للقائها لكي أتحدث عن نفسي وخلاصها . فما أكثر ما كنت أريد الحديث فيه . إنك تعلم ولا ريب أن موضوع النفس وخلاصها ليس أقرب الموضوعات اليك ، عندما تكون قرب امرأة جميلة ، تلفها غلالة من السحر والخفاء . ولكنها لم تلتفت الى موضوع آخر ، حتى بدأت ألوم نفسي على كتابة تلك العبارة الأخيرة في تذكرتي . ومع ذلك فلو لم أكتبها ، فمن يدري لو كانت بقية التذكرة كافية لاقناعها باللقاء . وحسبت لولا أنني استرعيت عناية المرأة فيها ، وانها تتصنع الاهتمام بمسألة هلاكي وانقاذي من الهلاك . ولكنها لزمت الموضوع ولم تحد عنه . حتى بدأت أشك . أهذا هو موضع البحث في الهلاك والخلاص . بستان ذيزه وبساط سندسي ، وسنديانة عتيقة تحجبنا عن الرقباء . وأصرت ، وأصررت على انه اذا لم يرأف جمالها بي ، فانني ذاهب الى الجحيم

فعادت الى جمالها : — كيف تعلم أنني جميلة . فقلت مقنعاً مؤكداً إنني أعلم ذلك

فضحكت مني ضحكة ساخرة فتحديتها قائلاً : — انزعي هذا النقاب : وأقيمي الدليل على خطأي

فقالت أولاً « لا » لأن ذلك مخالف لقوانين الدير

فقلتُ لا : إنك سخرت بالحقيقة وهزأت بي لأنني قلت إنك جميلة . فالحقيقة فوق جميع القواعد والقوانين

وبعد جدل أحسست أنني بدأت أكسب معركة الجدل . لم تكن قد قالت أو لمحت الى أنها ستنزع النقاب ولكنني علمت حقاً أنها ستفعل ، وكانت تقي هذه ثقة من يرى برهاناً في الفجر

فيمل انه سيغدو نوراً متفتحاً رأد الضحى . وارتفعت يداها الى أعلى رأسها حيث النقاب مجتمع ومشبوك . ثم ألقت يديها . وبدأت تتحدث عن طفولتها . لم تقل لي من هي ولا من أين أتت، ولكنها أشارت الى شيء رهيب حلَّ ببلدتها عند ما كانت طفلة ، وجعل ينتقل من قرية الى أخرى ، وظله القاتم يستطيل ، تاركاً وراءه الموت والتشويه — ذلك الشيء كان الجدري ؛ ثم قالت وهي ترتعش كأنها تخشى ان يسمعها الشيطان تذكر الجمال

— ولعلي كنت جميلة حينئذٍ !

— وما حدث حينئذ ؟ سألتها هذا السؤال في رفق، ولكنني شعرت قبل ان أنطق بالكلمات ان تعبيراً ألمَّ بي ، أوكأن ريحاً صرصراً تهبُّ على جذوع شجر التفاح . ذلك ان خوفاً أخذ ينتابني . أيُعقل ان يكون بقي في جمالها ، وهماً من الاوهام ؟

وردَّت على سؤالي . الجدري . نجوت بحياتي . أما جمالي (وكانت تلفظ « الجمال » كأن التلفظ به أعظم الخطايا) فلم تبق اثارة منه ، ولم يبقَ لي من قسماتي الاّ اليسير

فتمتمتُ : الاّ اليسير . . ولم أجد ما أزيد، ولكنها استأنفت القول فلاّت الفاصل في الحديث

— انك لا تريد الآن ان ترى وجهي ؟

لم يكن ذلك صحيحاً . نعم كادت العبرات تخنقني عندما تصورت حطام ذلك الجمال المنقطع النظير ، ومع ذلك لم أصدّق أني لا أجد في ذلك الحطام أثراً لتلك الطلعة البهية التي تخيلتها . ولعلّ التخيل يقصر عن أداء المعنى الذي أريد . اني لم أتخيل طلعتها البهية تخيلاً — اني ادركتها بالبصيرة دون البصر

فقلت : — بل اريد ان أراه . . حتماً . وقلتُ في نفسي : حتى حطام الطلعة البهية تحتفظ بسمةٍ من عهدها الغابر . ثم ألحت بي رغبة في مؤاساتها ، او في تعويض ما بدا من تردد او تعثر او فتور في قولي فقلت :

— ان صوتك لأغن

فقالت : ان أصوات قومي جميعاً أصوات غنّ

ولم تكن قد اشارت الى قومها قبلاً فقلت « قومك ؟ . . »

فقالت : نعم ، « الهوتنتوت »

فصحت عجباً : « قومك الهوتنتوت » ؟ !

فقالت في كبر وكأن السخط تملكها : نعم « الهوتنتوت » !

فقلت . ولكنك تتكلمين الانكليزية

فقالت : الانكليز يحكمون ارض الهوتنتوت

فقلت : وكأنني متعلق بقشة طافية : والدير ، والرهبنة ؟

فقالت : ان ابواب الدير مفتوحة لجميع من يقبل الانتظام في كنيسة الاصلاح فستولى عني صمت الكهوف . وسمعت حفيف الورق بداعبة نسيم عليل صاح في اغصان شجر التفاح . وبعد فترة من الصمت كأنها دهر، قالت ملتفتة الي : « ومع ذلك تريد أن ترى وجهي ؟! »

فقلت : « حتماً » . قل لي بربك ياصاحبي أكان في وسعي ان أقول لا . فلما أجبتها بالايجاب ارتفعت ذراعاها الى حيث شبك النقاب وكانت عقده كثيرة فبدأت تحلها عقدة عقدة متمهلة في حلها ، فألقيت في خلال ذلك نظري على الحديقة ، وذهب فكري في أثر النظر ، وكأنني كنت أخشى فعلاً ان أرى وجهها . ورأيت عن بعد راهبتين تمشيان على البساط السندسي . ورأيت أثوابهما البيض تلتقيان وتستخفيان بين جذوع الشجر ، وعزمت أن أنبئها بما رأيت وان اقول لها إنه اذا كان نزع النقاب مخالفاً لقانون الدير فلعله من الخير ألا تنزعه ولكن يديها كانتا مشغولتين بحل العقد فلم استطع إلا ان اتمتم : « لترجئه ذلك الآن »

ثم نظرت إليها نظرة طويلة ، متذكراً وهمي ، وهم جمالها الرائع وهو وهم لم يفارقني ، وصعدت الى حبلي وقفزت الى أعلى السور ثم الى خارج حديقة الدير

***

قال جوركنز كلماته الاخيرة وهو يحدق في النار وعليه سمة من الكآبة ، فكأن الوهم القديم اشتعل ثانية في خياله وبث الدفء في دمه

ورغبت في ان أعرب عن شكري أياه فأشرت الى الخادم . . فكل كلام بعد كلامه كان رطانة في غير محلها . ومع ذلك أبى صاحبنا « وتي » الا ان يقول :

— « ان جمالها لم يكن وهماً ياجوركنز » .

فقال جوركنز : — ماذا تقول !

— ان جمالها لم يكن وهماً . فراهبات كنيسة الاصلاح أجمل بنات تلك الجزائر . والدير يتخيرهن بأعظم عناية . وكان فوزوا بضم فتاة بارعة الجمال الى الرهبنة عد ذلك نصراً عظيماً على الشيطان . . وهن جميلات حقاً .

فقال جوركنز . . ولكن فتاة من الهوتنتوت . . . شوه الجدري جميع ملامحها !

— آه ! هن يتقنات . وشعارهن : كوني أشد مكراً من الشيطان !

فشرب جوركنز قدح الوسكي كرعة واحدة ، فأشرت الى الخادم بأن يأتيه بآخر ، وبعد ما خرجت ، كان لا يزال جالساً أمام النار وقد كأنه يبحث عن شيء ضاع في اللهب !

(نقلت عن الانكليزية بتصرف يسير)